لسو مات الجميع
لو توارى الفارس الفض المتيع
موجة يلهو بها ، يهدمها
موج الطباع
وارى الفارس يهتوي ويغيب
وارى البومة تهوي وتغيب
بين شطين من الموج الضباب
وارى عبر الضباب
شبحا يبضر في البحران
يغويه السراب
تلتقيه في ضباب التبغ
اشباح ينشيها الضباب

عانى خليل حاوي في هذه القصيدة صراعا نفسيا حادا : ان الرؤى السوداء ما زالت تتكرر في صور اكثر سوادا وتحجرا . وكانت اللعنة التي حلت عليه هي ان يظل واقفا في مواجهة هذه الرؤى لا يستطيع ان يهرب منها ولا ان يطليها بوهم خادع . ولم تجده محاولة الهرب من ذاته ولم يستطع التوبة عن الابحار في اعماق الذات وتصيد الرؤى ومجابهة خيبات متكررة . وهذه هي لعنة الشاعر الرائي في مراحل الموت التي تعيشها الحضارات .

كانت قصيدة « ضباب وبروق » مقدمة حتمية لقصيدة « الرعد الجريح » التي تلتها عام ١٩٧٣ . فمن ينظر البرق ينتظر قدوم الرعد ليؤكد ان الالتماعات كانت بروقا حقيقية ولم تكن سرابا . فجاءت « الرعد الجريح » لتثبت ان البروق التي سبقتها لم تكن وهما وان حجبتها اكداس الضباب ، وان الرؤيا لا بد ان تعود وتفرض ذاتها وان بدت بعيدة لا تطال . وقد وجد خليل حاوي نفسه في هذه القصيدة يسير على درب اليقين ، وبدأت تحل عليه نعمة الارتياح من الشك القاتل حول مصير الحضارة العربية . بدأت القصيدة بصور الموات التي كانت مسيطرة على ما سبقها من قصائد ، وانطلقت فجأة صورة الرعد الجريح وهو البطل العربي المخلص الذي بدأ بازاحة صور السواد والتحجر ورسم معالم حياة جديدة . وفي ذلك يقول الشاعر في مقدمة القصيدة :

وكاد يسيطر ايقاع الهلاك على القصيدة من المستهل
الى الخاتمة . ثم تجلت الرؤيا هالة من هول الرعد
ومهابة الجبل في طلعة بطل مخلص ، صاغه دفق
الحياة البكر في ارض راحت ترتل بحيوية الفطرة ،
لطول ما اختزنت من طاقة هائلة عبر هجوع
طويل . كانت في حضور البطل صفوة الاصالة
العربية ، تتخطى مما تتصف به ذاته من عفة
وكرامة وفداء . يتجسد في التاريخ فيكون الانبعاث
العربي الاصيل ، ويغيب فيطغى التهافت وينتهي
الى ما يشبه الموات ...
كنت كمن يسمع ويطبع فيرسم بايقاع التمجيد .
والتهليل لوحة تنافي الايقاع فيما رسمته من
لوحات سابقة .